محمد فيضي الزهاوي

مفتي بغداد

هو شخصية لامعة ظهرت في القرن الثالث عشر الهجري ، وهو من نادري الرجال ذوي المواهب الممتازة ، عاش قرناً كاملاً نشر فيه ألوية العلم والتدريس والإفتاء ، والأدب العربي ، إن شئت عالماً فعالم ، أو شاعراً فشاعر في اللغات : العربية والفارسية والكردية والتركية ، أو مدرساً فمدرس ، درس العلوم الإسلامية والثقافة العربية سبعين سنة ، وإن شئته فقيهاً ففقيه في الفقهين : الشافعي والحنفي - تربع على كرسي الإفتاء في الزوراء ثمانياً وثلاثين سنة ، وتخرج في مدرسته مئات علماء وفضلاء وأدباء ، بحيث تنتهي اليه سلسلة إجازات أكثر العلماء في العراق ، كما قال الشاعر السيد أحمد الراوي الواعظ المشهور بأبي الحلق الذهب في قصيدته الرثائية التي سننقلها فيما بعد :

إذ لا ترى ذا العصر فضلاً في امرئ ... الا ومنه صدوره في الورد

وبالرغم من هذا فقد ضنّ عليه المترجمون ، فلم يكتبوا شيئاً عن حياته ، ولم يرووا لنا نماذج من أشعاره ، بل مات هـذا الرجل الفذ ، والشعلة الوهاجة ، ونُسيت أشعاره وآثاره الأدبية ، وطرائفه وظرائفه ، ونكاته المستملحة ، وحكاياته اللطيفة مع الولاة ورجال العلم والأدب .

لقد حفزني ذلك في عام ١٣٦٤ هـ = ١٩٤٥ م على أن أكتب شيئاً في حياته وألمّ ما يمكن له من آثاره وأشعاره ، فأصدرت كتاباً باللغة الكردية بعنوان : (مفتي زهاوي) وقع في (١٤٠) صفحة ، ترجمت به حياته ، وجمعت فيه كل ما عثرت عليه من آثاره الأدبية ، وحسبي أني جمعت من نظمه أكثر من مئتي بيت نصفها بالعربية ، والباقي بالفارسية والكردية والتركية ، وطبعته في سنة ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٣ م ونال الكتاب بعادته استحساناً وإقبالاً من أهل الفضل والأدب ، وكان عليّ أن أترجمه الى العربية لاخواني الناطقين بالضاد لولا كثرة الأشغال

الرسمية وغيرها ، ولكن بدت الحاجة الملحة الآن الى أن يقتطف من كتابنا المذكور مقالاً واحداً وموجزاً شاملا لأهم ما فى الكتاب تنويراً للقراء الكرام ، وأداءاً لبعض ما يجب عليّ أداؤه لهذا الرجل الانساني الذي خدم العلم والدين والأدب زهاء ثلاثة أرباع قرن ، اعترافاً مني بفضله وتخليداً لذكراه .

هو محمد فيضي بن الملا أحمد بن حسن بك بن رستم بك بن كي خسرو بك بن أمير بابا سليمان ، وهذا الأمير — على ما قاله المرحوم محمد أمين زكي فى كتابه (تأريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور) — هو ابن فقي أحمد الدارشماني ، جد الأسرة البابانية الشـــهيرة ، ولهذا فالمفتي الزهاوي يُعد من الأسرة المذكورة .

ولد رحمه الله فى بلدة (السليمانية) سنة ١٢٠٨ هـ = ١٧٩٣ م على ما حققه المرحوم محمد أمين زكي ، وعلى ما حققناه فى كتابنا المذكور ، من أب كردي عراقي وأم كردية إيرانيـة من أهالي قرية (زهاو) الواقعة بين قريتي (هورين وشيخان) و (قصر شيرين) .

وأما بحسب السجل الرسمي للحكومة العثمانية ، فهو من مواليد سنة ١٢١٨ هـ = ١٨٠٣ م ويؤيده ما رواه المرحوم الحاج ميرزا عبـد الحميد السكردستاني الايراني الملقب بـ (ملك الكلام) فى كتابه المخطوط (سفرنامه) الذي يذكر فيه رحلته الى بغداد والحجاز ، فقد قال فيه : إنه زار فى بغداد المفتي الكبير محمد فيضي الزهاوي بداره فى الساعة الثامنة من ليلة الثلاثاء السادس من جمادى الأولى سنة ١٣٠٤ هـ وسأله عن عمره فأجابه المفتي حالاً بقوله : (أوف [1]) . وأشار في ضمن هذا التأفف الى عـدد سني عمره بحساب الحروف الأبجدية وهو « ٨٧ » سنة ، وعلى هذا فالمفتي كان من مواليد سنة ١٢١٨ هـ = ١٨٠٣ م وعاش إحدى وتسعين سنة لأن وفاته كانت في سنة ١٣٠٨ هـ = ١٨٩٠ م .

لقـد ترعرع المفتي فى أحضان والده بالسليمانية ، ونشأ فى أيام الإمارة البابانية ، وأقبل على

(١) هذه الكلمة تكتب ويتلفظ بها هكذا فى اللغة الكردية ، أي بالألف والواو والفساء لا بالألف والفاء كما في العربية .

العلم في صغره ، فدرس القرآن الكريم والفارسية ومبادىء النحو والصرف والفقه واللغة على والده .

وبعد أن توفي والده ، وبلغ هو أشده ، وثبتت في مبادىء العلوم العربية قدمه انتقل الى مدرسة العلامة (الشيخ معروف النودهي) [1] بالجامع الكبير بالسليمانية ، وبقي عنده ردحاً من الزمن أخذ فيه عنه أسرار العلوم العربية من النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع ، والعروض والفقه ، وأخذ عنه هوى الشعر ووحي الأدب .

ثم سافر إلى مدرسة الإمام الكبير (الشيخ عبد الله الخرباني) [2] في حلبجة وبقي فيها مدة من الزمن ، حضر في أثنائها حلقات درس الشيخ ، وأخذ عنه علوم المنطق والفقه وأصول الفقه .

ثم رحل الى (سنه = سنندج) في كردستان إيران ، ونزل في مدرسة أستاذ الكل (الشيخ محمد قسيم المردوخي [3]) وقرأ عنده علمي الحكمة والكلام ، واغترف من معين علمه وفضله .

(١) ولد في قرية (نوده) بلواء السليمانية سنة ١١٦٦ هـ ـ ١٧٥٢ م وتوفي بها سنة ١٢٥٤ هـ ـ ١٨٣٨ م وكان عالماً بارعاً وشاعراً بليغاً في الكردية والفارسية والعربية وله أشعار رقيقة وقصائد رنانة ، وله من المخطوطات العلمية والأدبية والمؤلفات ما يقف على سنين مؤلفاً .

(٢) هو الشيخ عبد الله ابن الشيخ إسماعيل ابن الشيخ محمد ابن الشيخ جامي من سادات النكية بقره داغ ، ولد رحمه الله في سنة ١١٩٠ هـ ـ ١٧٧٦ م وتوفي في سنة ١٢٨٥ هـ ـ ١٨٦٨ م في قرية (خرباني) بقضاء حلبجة . كان ـ رحمه الله ـ عالماً جليلا من بيت علم وفضل ودين وسيادة ، له تعليقات مفيدة على (تحفة المحتاج : شرح المنهاج) لابن حجر الهيتمي في الفقه الشافعي وعلى (جمع الجوامع) في أصول الفقه ، وكان مدرساً في الجامع الكبير بحلبجة ، وبعد أن هاجر مولانا خالد النقشبندي إلى بغداد وترك السليمانية نهائياً عين الشيخ عبد الله مدرساً للتكية الخالدية بالسليمانية سنة ١٢٣٥ هـ ـ ١٨١٩ م وبعد ثلاث سنوات تركها ورجع الى حلبجة ، وكان يدرس فيها شتاءاً ، وفي قرية خرباني صيفاً . عاش رحمه الله خمساً وتسعين سنة ، ونشر لواء العلم والتدريس زهاء ثلاثة أرباع قرن . ومن تلامذته مولانا خالد النقشبندي ، وملا عبد الرحمن النودهي وابنه ملا أحمد المفتي النودهي ، وملا صادق الطاويلي (نسبة الى قرية طويلة) وملا خضر التالي وعشرات غيرهم ـ رحمهم الله ـ .

(٣) المردوخية أسرة قديمة معروفة بالعلم والتعمق والذكاء ، نبغ فيهم علماء وفضلاء كثيرون كانوا =

ثم سافر الى (سابلاغ = ساوجبلاغ) المسماة حالياً (بمهاباد) ، ونزل في مدرســة الإمام الملا محمد الشهير ابن الرسول الذكي [1] وورد ينبوع علمــه ، وأخذ عنــه العلوم الرياضية من الجبر والحساب والهيأة والهندسة ، ثم أخذ عنه الاجازة العلمية .

رجع المفتي الزهاوي إلى مسقط رأسه السليمانية وتصدى للتدريس فيهـا ، فعين مدرساً في مسجد الشيخ عبد الكريم البرزنجي [2] الذي كان مولانا خالد النقشبندي مدرساً فيه سابقاً ، وبعد أن اشتغل فيــه بالتدريس مدة من الزمن عزم على ترك السليمانية ، تاركاً منصب التدريس فيها ، فسافر الى كركوك وعين مدرساً في جامع (المسلم) وذلك في حدود سنة ١٢٥١هـ = ١٨٣٥م

= ساكنين في بلدة سنندج ونواحيها ، منهم العلامة الشيخ محمد قسيم هذا أستاذ مولانا خالد النقشبندي المتوفى سنة ١٢٣٦هـ = ١٨٢٠ م ومنهم أخوه الشيخ سعيد وأبناؤه العلماء الأربعة الكبار وهم : الشيخ عبد القادر المهاجر شارح تهذيب الكلام ، والشيخ محمد وسيم ومحمد جسيم ومحمد نسيم . ولهم آثار وتآليف كثيرة في علمي الحكمة والكلام ، ومنهم ابن عمهم الشيخ طه حفيد الشيخ قسيم المذكور المهاجر الى بغـداد جد البيت السنوي فيها ، ولقد هاجر قسم من المردوخيين في أوائل القرن الحادي عشر الى (قرداغ) في لواء السليمانية ، ومنهم الشيخ عبد اللطيف الكبير صاحب المؤلفات الشهيرة والنظم الرائق ، وأعقبوا هنــاك علماء وفضلاء في كل علم وفن .

(١) ولد في قرية جوارتا مركز قضاء شهر بازار بلواء السليمانية سنة ١١٨١ هـ - ١٧٦٧ م وتوفي سنة ١٢٤٦ هـ = ١٨٣٠ م في (سابلاغ) ، قال المفتي الزهاوي : كانت العلوم الاسلامية كرة بيد ابن الرسول يديرها كيفما أراد ، له مؤلفات كثيرة ، منها شرحه على (أشــكال التأسيس) في الهندســة ، ومنها حاشيته المدونة على (الجغميني) و (البرجندي) في علم الفلك ، ومنها رسالتان في الجبر والهندسة ، ومنها حاشيته المدونة على (السيلكوتي) وحاشية (الخيالي) في علم الكلام المطبوعة في استانبول سنة ١٣٠٢هـ = ١٨٨٤م ، ومنها حاشيته المدونة على تحفة المحتاج لابن حجر الهيتمي ، ولوالده رسول الذكي أيضاً حاشــية مدونة على التحفة ، وعندي نسخة من هاتين التحفتين المخطوطتين ، وتوجد في مكتبتي نسخة منها مدونة تعليقات كل من العلامة الملا يحيى المزوري والسيد بابا رسول البرزنجي عليها أيضاً .

(٢) هذا الفاضل كان من أجلة علماء السليمانية ، ولد في قرية (برزنجه) في حدود سنة ١١٤٠ هـ = ١٧٢٧ م وتوفي سنة ١٢١٣ هـ = ١٧٩٨ م في السليمانية ودفن في المقبرة المشهورة باسمه ، قرأ عليه جماعة من الفضلاء ، مثل ملا ابراهيم البياري والسيد علي البرزنجي قاضي السليمانية ، ومولانا خالد النقشبندي وغيرهم ، رثاه مولانا خالد بقصيدة فارسية بليغة نشرت في ديوانه المطبوع .

وبقي هنالك الى سنة ١٢٥٧ هـ = ١٨٤١ م .

وفي سنة ١٢٥٧ هـ = ١٨٤١ م سافر إلى بغداد ، واتصل بواليها علي رضا باشا فرأى الوالي فيه شخصية ذكية لامعة ، واسعة الاطلاع لم يشهدها من قبل ، وكان قد بلغه سابقاً صيته في العلوم والآداب ، فدعاه إلى مدينة السلام بغداد ، ووافق على ذلك المفتي ، وكان وروده إياها في أواخر سنة ١٢٥٧ هـ = ١٨٤١ م واجتمع بعلمائها وأدبائها ، وحل في قلوبهم محل سويدائها ، قال الأخرس[1] الشاعر المشهور عند لقائه المفتي المذكور حين وروده بغداد :

أرى في لفظ هذا الشهم معنى ... ينبيء عن مدى علم عظيم
ومهما زدته نظراً بفكري ... رأيت نُهاه قسطاسَ العلوم

ثم عين مدرساً رسمياً في المدرسة العليّة ببغداد ، ومما يؤيد ذلك ما كتبه المفتي بخطه في ظهر كتاب (تحفة المحتاج) لابن حجر المخطوط المحفوظ حالياً في مكتبة الملا محمد سعيد الدهلزي بالسليمانية : (لقد وفقتُ — والحمد لله — على قراءة (كذا) هذا الشرح وتصحيحه الا ما زاغ عنه البصر وزل عنه النظر ، فلقد قيل : أبى الكتاب أن يُصحّ ، وأنا الفقير اليه عز وجل محمد الشهير بالزهاوي المدرس بالمدرسة العليّة) .

ثم تصدر للتدريس فصار رئيس المدرسين في بغداد سنة ١٢٦٦ هـ = ١٨٤٩ م وكان له قبول حسن عند رجال الدولة وعند العلماء والأدباء ؛ ثم وُجه اليه منصب الإفتاء بالزوراء في مذهب الامام الأعظم سنة ١٢٧٠ هـ = ١٨٥٣ م في عهد الوالي رشيد باشا ، وذلك بعد أن استقال المفتي السابق السيد محمد آمين الزند ، وكان الزهاوي شافعي المذهب ، وفي ذلك قال شاعر العراق المشهور عبد الباقي العمري [2] مهنئاً المفتي الزهاوي بالإفتاء :

(١) هو عبدالتفسار بن عبد الواحد بن وهب ، ولد في الموصل سنة ١٢٢٥ هـ = ١٨١٠م وتوفي بالبصرة سنة ١٢٩٠ هـ — ١٨٧٣ م ، وله ديوان شعر مطبوع .

(٢) هو ابن سليمان بن أحمد العمري الفاروقي الموصلي ، ولد سنة ١٢٠٤ هـ = ١٧٨٩ م وتوفي في بغداد سنة ١٢٧٨هـ = ١٨٦١ م وله ديوان شعر مطبوع .

قد قيل لي :- إذ رحتُ أنشد عند ما شاهدتُ دينَ محمد يتجدد -
في مذهب النعمان بالزوراء قد أفتى الإمام الشافعي محمد

وقال عبد الباقي أيضاً مهنئاً إياه :

تالله ما غلط الأمين محمّد من منصب الافتاء باستعفائه
لكن رآك به حرياً فالتجا لنزوله بالطوع من إفتائه

بقي المفتي الزهاوي في منصب الافتاء ثمانياً وثلاثين سنة إلى أن توفي رحمه الله .

إن المفتي تأثر تأثراً خاصاً بنزعة أستاذين من أساتذته كانت لكل منهما نزعة خاصة . أولهما الشيخ معروف النودهي ، فقد كانت له نزعة أدبية فائقة وأدت نزعته هذه الى نظم أكثر العلوم ، ونظم أسماء الله الحسنى ، ونظم أسماء أصحاب (بدر) والى تخميس كثير من القصائد المشهورة (كالبردة) و (الهمزية) و (الضربة) للبوصيري و (بانت سعاد) لكعب بن زهير ، و (لامية العجم) للطغرائي وغيرها .

وثانيهما الشيخ محمد قسيم الزدوخي السنندجي ، فقد كان هذا الشيخ مع جميع علماء هذه الأسرة الشريفة ، كأخيه الشيخ سعيد وأبنائه ، مولعين بصورة خاصة بعلمي الحكمة والكلام ، فانهم مع تبحرهم في جميع العلوم الاسلامية كانوا ميالين الى هذين العلمين ومهروا فيهما بحيث انحصرت تآليفهم فيهما . أقتبس المفتي نزعة أدبية من شيخه الأول ، فكان المفتي شاعراً وناثراً ، وأديباً ولغوياً كما قال :

لو بحسب الحسب المر... علا فوق معالي كنت بالعلم وبالشع... ر على العالم عالي

وأقتبس نزعة كلامية من شيخه الثاني ، فكان عالماً كلامياً ، ومجادلاً قوي الحجة ، عظيم البرهان ، ذكي الجنان ، لا يلحقه فيها الا القليلون ، وإنه ما ناقش أحداً إلا أفحمه ، ولا جادل عالماً إلا ألزمه ، كما قال :

فكري دقيق في العلوم لأنه ... دارت عليه رحى الجدال سنينا [1]

واقتبس باقي العلوم الاسلامية من شيوخه الآخرين باتقان وإمعان ، فكان مجمع روافد علم وخزانة أدب .

وبالجملة كانت نشأة المفتي في كردستان بلاد العلم والدين والأدب ، وأخذ العلم والأدب عن رجالها المعروفين ، وتثقف بالثقافتين العربية والفارسية ، وعرف لغتيها وأسرارهما فحفظ منهما أشياء كثيرة ، كما وعى كثيراً من أخبار الأدباء والشعراء ، وأمثال العرب والفرس وحوادثها حتى صار علماً من أعلامها ودعامة من دعائم آدابها ، ومع هذا فلم يكن منقطعاً للشعر والأدب حسب بل كان يشتغل بتدريس العلوم والافتاء والتحقيقات العلمية كما ذكرنا سابقاً .

إن المفتي لم يكن يحفلُ بقرض الشعر إلا إذا جاشت في نفسه العاطفة القوية ، وسنح لذهنه الخاطر البديع ، ومما سما بشعره وزاد في بهائه وإشراقه أنه لم يكن ينظم الا لنفسه ، ولا يترجم إلا ما يختلج في صدره ، لذا كان شاعراً مقلاً يقتصر أكثر الأحيان على بيت أو بيتين أو ثلاثة أو أربعة ، إمّا بالعربية وإمّا بالفارسية وإمّا بالكردية وإمّا بالتركية ، اللهم الا أن تبعث بعض الأسباب الى التطويل فكان يطيل نوعاً ما ، ومن أطول قصائده التي عثرتُ عليها ما نظمها في رثاء الملا سليمان الخضري [2] سنة ١٢٦٠ هـ = ١٨٤٤م وكتبها الملا عبد الله ابن الملا سليمان في ظهر كتاب المطول المخطوط المحفوظ حالياً في كركوك في مكتبة المرحوم الملا علي حكمت . يقول الملا عبدالله قبل كتابة القصيدة : (من بنات أفكار الفاضل اللوذعي محمد فيضي أفندي الزهاوي المدرس ببغداد مُد ظله في مرثية والدي المرحوم الملا سليمان المتوفى سنة الف ومائتين وستين ، رحمه الله . ثم كتب في آخرها : حرر بقلم الحقير الأثيم عبد الله الخضري المدرس بقورية كركوك سنة ١٢٦٠ هـ) وهذا هو أصل القصيدة :

ألا إنما الدنيا سجيتها الغدرُ ... فليس لمغرور بزخرفها عذرُ

---

(١) في الجمع بين الدقيق والرحى والدوران مراعاة النظير .

(٢) خضر : اسم قرية في ناحية (سه نكاو) في قضاء جمجمال بلواء كركوك .

فظاهرها ود وباطنها قلًى ... وإدبارها خير وإقبالها شرُّ
ورغبتها غيٌّ ورهبتها هُدىً ... وطالبُها عبدٌ وهاربُها حرُّ
وعزّتُها ذلٌّ وفرحتها أسىً ... وصحّتُها سُقمٌ وثروتها فقرُ
وإن سالمتْ لا يسلم الناسُ بأسها (١) ... تزور بأحيانٍ وفي الحال تزوَرُّ
توالي وتولي النيل ظُهراً وبعده ... تعودُ تُعادي قبلَ أن يأتي العصرُ
هواها سبي الألباب وهي قبيحةٌ ... نَعَم ما لها حسنٌ ولكن لها سحرُ
مع القبح عمر الخاطبين صداقُها ... فما هي بالحسنا ولم يغلها (٢) المهرُ
مكارهها أضعافُ ما يشتهى بها ... فضعف القوى نفعٌ وقوتها ضرُّ
فمحسوسها في الباطن الجوع والظما ... وملموسُها في الظاهر البرد والحرُّ
سَمِعنا بأن الحق مُرٌّ مذاقُه ... وعيش الدُّنا مع أنه باطلٌ مُرُّ
ومشمومُها نتن وبشع مذوقُها ... ومُبصَرُها نُكر ومسموعها هُجرُ
ونشكو بما ليست بدار قرارنا ... قراءة أكفار فشكوتُنا شكرُ
فأسعِدْ بمن عنها ترحّل سالفاً ... من الباقيات الصالحات لها ذخرُ
وبدّلَ بالفاني المخلّدَ باقيا ... له آجلاً أجر وفي العاجل الذكرُ
كما ارتحل المولى سليمانُ ذلك الـ ... ـتقي النقي الزاهد العابد البَرُّ
بطول بقاه لم يقصر من التقى ... تقوم لياليه تصوم له الشهرُ
ويشتاقُ أن لا تغرب الشمس هائما ... ويكره في الإحياء أن يطلع الفجرُ
وأعلى قصور الخلد أولى بمؤمن ... له طال في التقوى وفي الطاعة العمرُ
لبطن الثرى فخر على ظهره بما ... غدى ثاوياً في بطنه ذلك الصدرُ
ورقّ له حزناً فلو كان ناطقاً ... رثاه بما لم يُرثَ صخرٌ به الصخرُ

(١) المجلة: الصحيح «من بأسها» إلا أن باب فرح كثيراً ما يتعدى بحذف حرف الجر.

(٢) المجلة: هكذا ورد. وقد أراد تضمين «ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر».

وفى لي البكا فى رُزئه وأمدّني ليالي لم ينصر ولم يصبر الصبرُ
ولو لم يخنّي الصبر مُتُّ خجالةً لخذلان صبري فى مصيبته نصرُ
خليليَّ هل قام القيامةُ إنني يُخيل لي أن السماء بهسا فطرُ
وأن ضياء الشمس فى قلبها لظىً وأن نجوم الزهر فى كبدها جمرُ
فجاءت بدخان له الشمس كوّرت كما انكدرت فيها به الأنجم الزهرُ
وأن سكون الأرض نابته رجفة وأن الجبال الراسيات لها مرُّ
وإن بكت الأرض السما فى بكاها فأعينها تجري وأدمعه قطرُ
وعاد غزيرُ الدمع منّا دماً نعم إلى النار يوم الحشر ينقلب البحرُ
لئن فات وهو الورد فابناه سلما لنا ماء ذاك الورد بعده والعطرُ
أعيذهما أن يجزعا لوفاته فبالصبر في القرآن قد علّق الأجرُ
سقت رحمة الرحمان قبره دائماً (١) وآنسه فى لحده العفو والغفرُ

وله قصيدة عربية فى رثاء إسماعيل باشا والي (شهرزور) المتوفى سنة ١٢٩٢ هـ ذكر منها فى كتاب (صفحات خالدة من الأدب العراقي) عشرة أبيات فقط لا حاجة إلى إيرادها هنا .

إن المفتي كما كان شاعراً فى الرثاء والمدح والتقريظ ، كذلك كان شاعراً فى المناجاة ، والفلسفة ، والإباء ، والنقد لبعض الأحوال الاجتماعية ، والغرام ، والذم ، والشكوى ، والمداعبات ، بل فى أكثر المعاني المطروقة ، والأغراض المألوفة . فمن مناجاته فى بعض خلواته قوله :

يا رب تاهت فى ثنائك عقول ما ذا عسى فيك العقول تقولُ
إن الوجود ثنى(٢) عليك بأسره فثناء أهل الفضل فيك فضول

ومن أشعاره فى الفلسفة قوله :

(١) المجلة : هكذا ورد الشطر مكسوراً .
(٢) المجلة : هكذا ورد والصواب « أثنى » .

وفوارة تروي عن الماء شيخها ... حديثاً صحيحاً مسنداً ومعنعنا (١) :

لمن يتعدى الطور مثلي مبتلٍ ... بذل ونكس ليس يسلم من عنا

ومنها قوله :

من صار يمشي بالعصا من كبر ... آن أوان أن يصير راحـلا

أعني الذي على ثلاث أرجل ... يمشي على الأربع يمشي عاجلا

ومنها أيضاً قوله :

معظم خلق الله فيهم معزز ... لهذا تحاذى بالعيون النواظر

أي إن الذي ينظر إلى المخلوقات بنظر الاحترام سوف يلاقي منهم الاحترام ، ألا ترى أن النظار يحترم دائماً ويوضع على العيون لأنه يعظم الأشياء ويكبرها . وعندي أن هذا المعنى

(١) الفوارة : منبع الماء ، وهي بحسب العرف أنبوب ينصب في وسط الحوض مرتفعاً عن سطح الماء لكي يفور منه الماء صاعداً . تروي : بالفتح من روى الحديث رواية نقله ، والرواية نقل الخبر عن العدول حتى ينتهي إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو إلى الصحابي رضي الله عنه . الراوي : الذي يروي الحديث عن غيره كالشافعي يروي عن مالك رضي الله عنهما . الشيخ : الذي يروي الحديث لغيره أو يلقيه عليه . الحديث : قول النبي أو فعله . الصحيح : من الحديث ما اتصل إسناده بأن يكون كل من رجاله سمع ذلك المروي ممن روي عنه وأن يكونوا كلهم من الدرجة الأولى في العدالة والضبط ، وأن لا يكون فيه شذوذ ولا إعلال . المسند : هو ما أضيف الى النبي بذكر رواته . المعنعن : ما دخل في إسناده كلمة (عن) ، ثم إن في الجمع بين الحديث والرواية والشيخ والصحيح والمسند والمعنعن مراعاة النظير ، كما أن في كلمة (تروي) إيهام التناسب ، ذلك لأنها وقعت بين كلمتي (الفوارة) و (الماء) وهو الأمر الذي يوهم في بادىء الأمر أنها بالفتح من الارواء المناسب لسابقه ولاحقه ، ومن البديع أن في آخر البيت الثاني مع آخر البيت الأول جناساً ملفقاً .

ويعجبني في وصف الفوارة ما قاله الشاعر (عبد علي) ابن ناصر الشهير بابن رحمة الحويزي في كتابه الكبير المخطوط : (السيرة المرضية) الموجود بخطه في مكتبتي ، الذي يبحث عن الحوادث التأريخية والوقائع الجارية في عهد والي البصرة علي باشا ابن أفراسياب باشا من سنة ١٠٣٣ هـ إلى سنة ١٠٥٢ هـ ويلقي الضوء على عشرين سنة من الفترة المظلمة في أهم جزء من أجزاء العراق حيث قال :

رأيت فوارة في منزل خرب ... تبكي عليه بكاء العاشق الثمل

تذري الرياح إذا هبت مدامعها ... عليه حتى تروي الأرض بالبلل

عيونها بكته أسى لكن مقلتها ... (لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل)

غير مسبوق إليه .

ومنها أيضاً قوله :

لقد حُرم الأملاك نيل خلافة فما لهم ذنب سوى عدم الذنب

ومنها أيضاً قوله :

حفيدنا من أبينا أحمدٌ الابن قشر والحفيدُ لبُّ

ومن أشعاره فى نقد بعض الأحوال الاجتماعية قوله فى صورة الارشاد والموعظة مع شيء من الاقتباس :

لا تدعُ فى حاجة بازاً ولا أسدا الله ربك لا تشرك به أحدا

يتبين من هذا البيت أن المفتي كان موحداً من أعماق قلبه بحيث لا يشوب إيمانه أدنى شائبة من شوائب الاستغاثة بغير الله .

والمفتي كثير من الأشعار فى نقد بعض الأحوال الاجتماعية وخاصة فى قصيدته الفارسية وباقي أشعاره الأخرى التي أوردناها فى كتابنا الكردي (مفتي زهاوي) فلنجتزيء هنا بهذا القدر .

يستنتج من هذه النقدات أن المفتي كان متأثراً بمحيطه الذي عاش فيه ، وكان ناقماً على بعض الأحوال الاجتماعية وبرماً بها وذلك مما جعله يشيب قبل أوانه ، كما قال مع شيء من الاقتباس :

شيبَ راسي فى شبابي لا تعدوه تعجبا إن هذا اليوم يوم يجعل الولدان شيبا

وجعله يتمنى الموت لكي يتخلص من هذه الدنيا الملأى بالنقص والاكدار .

والمفتي كثير من الأشعار الغرامية الرقيقة تمتاز بمعان رائقة ، وألفاظ موسيقية ، وله أشعار فى الطعن ، وأسلوبه فيه أسلوب حاد صريح ، فمثلا يقول فى الطعن على العالم الكبير (نصيرالدين الطوسي) صاحب كتاب (التجريد) فى علم الكلام :

يا جامعاً بالسوء حسن كتابه هلا خشيتَ عليك سوء الخاتمه

جمع النصير الحسن فى تجريده لكنه بالسوء أمسى خاتمه

ومن مداعباته أن الثلج أخذ يتساقط في الليلة التي كانت تسقط فيها الجمرة الثالثة وفي صباحها قال المفتي مداعباً :

قالوا السما قــد أسقطت جمراتها   صدقوا وهذا الثلج بعض رمادها

والمفتي أشــــعار كثيرة أخرى قالها ارتجالاً بمناسبات خصوصية ، منها أن ابنه جميل صدقي الزهاوي الذي كان يحبه حباً جماً لكونه ذكياً وأديباً ومنكتاً ، ولكونه أصغر أبنائه ، ترك مجلس والده مدة من الزمن ، وكان يتردد الى مجالس جماعة من ذوي الشخصيات الأخرى ، فتأثر المفتي من ذلك ، وكتب اليه مرة بيتين فارسيين ذكرناهما في الكتاب الكردي .

ومنها أنه قُتل في بغداد القاضي الثاني المدعو (نجم الدين) ضحوة نهار الثلاثاء الحادي عشر من ربيع الأول سنة ١٣٠٤ هـ = ١٨٨٦ م وقد أحدث قتله ضجة عظيمة وأسفاً عميقاً في جميع أوساط بغداد ، وذهب المفتي الى مجلس الفاتحة ، فقال عند دخول المجلس :

يا له من نجم سعد أفلا   أفلا نبكي عليه أفلا ؟

ومنها قوله في جماعة من الحساد المعاصرين الذين حسدوه على ساعة ذهب أهداها اليه والي بغداد (مدحت باشا) مع الاقتباس :

من ساعة أُعطيتُها قد زُلزلوا   « زلزلة الساعة شيءٌ عظيم »

إن المفتي كما كان شاعراً . كذلك كان ناثراً أيضاً ، غير أنه كان يلتزم السجع ، ومن رسائله ما كتبه من بغداد الى العلامة أبي الثناء الآلوسي في استانبول ونقلها السيد الآلوسي في كتابه (غرائب الاغتراب) بحذافيرها فلا حاجة إلى ذكرها هنا .

ومن نثره ما كتبه تقريظاً للقصيدة الرائية لعبد الباقي أفندي العمري المار ذكرها ، التي قرظها بقصيدته السابقة ، ولقد نشر هذا التقريظ في ديوان عبد الباقي .

كان المفتي متوقد الذكاء ، متين الحافظة ، حاضر الجواب ، سريع الخاطر ، إذا نظم أطرب ، وإذا نثر أعجب ، وكان مع الأدباء ذا فنون ، ومع الظرفاء ذا مجون ، ومع العلماء بحراً لا يدرك غوره وقعره ، وكان يجلس في مدرسته نهاراً ، وفي داره ليلا ، ويضم ناديه مختلف الثقافات ،

ويخاطب جلساءه بلغاتهم ، فيتكلم معهم تارة بالعربية ، وأخرى بالفارسية ، وآونة بالكردية أو التركية ، فلا تجد أحداً إلا كان مادحاً لأدبه ، ومكبراً لعلمه ، يقول (ملك الكلام) في كتابه المخطوط (سفرنامه) : « ما رأيت من العلماء أفصح وأبلغ وأجمع للفضائل من المفتي الزهاوي » .

وكان يجتمع عنده العلماء والأدباء والشعراء يسمرون السمر اللذيذ ، ويتحادثون الحديث اللطيف ، وكان له من الكلمات المستملحة والطرائف الأدبية والظرائف الشعرية والنثرية ما لو جمعت لكانت ثروة أدبية خالدة . ولكن يا للأسف كان نصيبها الضياع والتلف ، ولم يبق منها إلا النزر اليسير .

وكما كان المفتي شاعراً وعالماً وأديباً ، كذلك كان خطيباً ارتجالياً مفوهاً ، قوي الحافظة ، متوقد الذكاء . يروى أنه عندما عُزل السلطان مراد ، وجلس مكانه السلطان عبد الحميد وردت برقية سرية بهذا الصدد الى والي بغداد ، وعلى أثر ذلك دعا الوالي كافة الأمراء والعلماء والوجهاء وفاجأهم بالخبر ثم التفت الى المفتي وطلب منه أن يلقي بهذه المناسبة خطبة ، فنهض من مكانه حالاً وألقى خطبة بليغة تناسب المقام ، استهلها بقوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » وبذلك بهت الحاضرون كأنهم لم يسمعوا هذه الآية الكريمة من قبل .

ويروى أيضاً أن خطيب جامع الخفافين مرض ذات مرة وكان أحد طلابه أن ينوب عنه لقراءة خطبة الجمعة ، وكان المفتي يؤدي دائماً صلاة الجمعة في الجامع المذكور ، وفي صبيحة يوم من أيام الجمعة التي قرر فيها الخطيب أن يخطب فيها بنفسه زاره عبد الباقي أفندي العمري ونهاه عن ذلك بحجة أنه بحاجة ماسة الى الاستراحة لمدة أسبوع آخر ، فوافق الخطيب عليه ، وكان أحد الحاضرين باعلام الوكيل ، فتعهد عبد الباقي به ، إلا أنه لم يخبر الوكيل عمداً ، وكان يقصد بذلك أن لا يحضر الوكيل فيضطر المفتي حينذاك الى إلقاء الخطبة بصورة إضطرارية وارتجالية من دون سابق علم ، معتقداً أنه غير قادر على القيام بهذه المهمة ، وعلى أثر ذلك دعا كثيراً من الشخصيات البارزة لاقامة صلاة هذه الجمعة في الجامع المذكور ، فاجتمع فيه خلق كثير من

الوجهاء والأدباء وحضر المفتي على عادته وكان غافلاً عن كل ما دبّر عليه ، وبعد الأذان انتظر الحاضرون كثيراً فلم يحضر الخطيب ، وحينئذ طلب عبد الباقي من المفتي أن يلقي الخطبة نكاية به ، فتنبه المفتي ونهض حالاً وألقى خطبة ارتجالية بليغة بحث فيها عن الدنيا وزوالها ، وفي أثنائها أنشد هذين البيتين لابن المرخي واستشهد بهما وهما :

رأيت خيال الظل أكبر عبرة ان كان في علم الحقيقة راق

شخوص وأشباح تمر وتنقضي وتفنى جميعاً والمحرّك باق

وكان المفتي يشير بيده الى عبد الباقي العمري .

على أن قيمة المفتي ليست في شعره أو نثره أو خطاباته ، بل إنما هي في علمه ، فانه كان منار العلم وعلما من أعلامه ، نشر العلم في أوساط رفيعة ، وارجاء فسيحة ، وأسس نهضة علمية عميقة وأذاق طلابه معنى التحقيقات والتدقيقات العلمية والفنية ، ومرّنهم على جودة الاحتراز وحل المشاكل العلمية ، بحيث انتهت اليه في بغداد رياسة العلم والتدريس والافتاء والمناظرة ، فتبرع فيها وساد أقرانه ، وحاز قصب السبق عليهم بذهنه الوقاد ، وعلمه الواسع ، وسرعة الحافظة ، وقوة الادراك والفهم ، وبطء النسيان ، حتى قال غير واحد : إنه لم يكن يسمع شيئاً لا يحفظه ، ولم يكن قط يحفظ شيئاً فينساه . وله في المحافل حتى الآن مباحث مشهورة ، وفي المجالس والمشاهد كلمات مأثورة .

نظر في المقليات وعرف أقوال المتكلمين ، وأحاط بآدابهم وبأسرار كلامهم ، وبرع في جميع العلوم الاسلامية ، ولا سيما علم الكلام والجدال ، وكان يفوق أقرانه ويبرز على أهل زمانه ، وقد جادل كثيراً من علماء إيران ومجتهديها ، وكان النجاح حليفه دائماً ، وكان ينصر السنة بدلائل ساطعة وبراهين قاطعة ، وكان ولاة بغداد كثيراً ما يقيمون حفلات عامة لهذه المناقشات العلمية ، وكانوا ينصبون سرادقات ويجمعون حشداً كبيراً من العلماء والأمراء والأدباء وذلك بمناسبة مجيء عالم ، وفاضل أو مجتهد إيراني الى بغداد ليدخلوا مع المفتي في المناقشة المذهبية ، وكانت مناقشاتهم تستمر ساعات ، وكان المفتي دائماً يخرج منها ظافراً ، ولم يكن قط يخاف في الله لومة

لائم، ولا صولة صائل كما قال :

إنا نقول الحق بالمحافل ونبطل الباطل بالدلائل
ولا نخاف لومةً من لائم ولا نهاب صولةً من صائل

وبالرغم من هذه المكانة العلمية السامية والمعلومات الواسعة التي يتحلى بها المفتي ، وبالرغم من هذا العمر الطويل الذي امتد نحو قرن واحد ، فهو لم يؤلف كتاباً يليق بمكانته الرفيعة ، وذلك لعوامل منها ، أنه كان يعتقد أنه لا جديد في الدنيا ، وأن كل ما يكتب ويؤلف تكرار محض ، ومنها ، أنه كان يعتقد أن العلم مكنوز في خزائن الكتب ، وأن العلم هو فهم ما تركه السابقون وما على العلماء الا الكشف عن هذه الكنوز بالبحث والدرس . ومنها ، إنه كانت منهمكا في التدريس وفي صرف ما وسعه لتنشئة العلماء والأدباء والمدرسين ، وكان يعتقد أن تأليف كتاب من العلماء، أي تعليمهم، أحسن بكثير من تأليف مئات كتب تبقى مهجورة في زاوية المكتبات ، كما قال :

عاق تدريسي عن التأليف لكن ما أنا من فضل ربي متأسف
من تلاميذي ألفت كتاباً كل سطر منه في العلم مؤلف

نعم، إن المفتي ترجم كتاب المكتوبات للامام الرباني من الفارسية الى العربية ، وهو كتاب كثير الصفحات واسع الأبواب والفصول ، بل بحر زاخر في علم التصوف والكلام ، يبحث عن مراتب التصوف وأحوال الصوفي ومقاماته المعنوية باصطلاحاتهم الخاصة وتعابيرهم الرقيقة الغامضة ، ولقد أبدع في الترجمة أي إبداع إذ قام بترجمة النثر بالنثر والنظم بالنظم على أحسن ما يراد .

كان المفتي الزهاوي صحيح البنية ، رقيع القامة ، كبير الهامة ، واسع العينين ، عريض الصدر ، قوي الاعصاب ، جميل الصورة ، لطيف الشكل في رقة ألفاظ ، وعذوبة كلام وفصاحة وبيان .

ولما بلغ التسعين من عمره نظر يوماً فى المرآة ، فرأى فيها شيخاً طاعناً فى السن رق جلده ، ووهن عظمه ، واشتعل رأسه شيباً ، وخارت قواه ، عليـــه آثار الشيخوخة ، وعلائم الوداع الأخير من الدنيا الفانية ، وتذكر بهذه المناسبة الحياة وملذاتها الصبيانية وقال :

بان لي فى المرآة شيخ كبير ... عاش حتى تعرف الأحوالا

قلت كم عشت ؟ قال تسعين عاما ... قلت ماذا فعلت فيها فقالا :

أكلات دفعتها فضلات ... وشروباً أرقتهـا أبوالا

وثياباً لبســتها فاخرات ... جُدُداً ونزعتها أسمالا (١)

والحق أنه صور لنا فى هذه الأبيات الأربعة لوحة طريفة ، وصورة دقيقة للحياة الدنيا .

إن المفتي عاش قرناً تقريباً ، خدم فيه العلوم الاسلامية ، والأدب العربي بشعره ونثره ، ونشر فيه ألوية التدريس فى السليمانية وكركوك وبغداد حوالي ثلاثة أرباع قرن ؛ وتخرج من مدرسته مئات العلماء والأدباء والمؤلفين والمؤرخين ، كما ولي الافتاء فى بغـــداد مدة ثمان وثلاثين سنة متوالية ، دافع فيها عن الاسلام والمسلمين دفاع الابطال ، وجاهد فى سبيل الحق ، وكافح أهل البدع ، ولم يخف فى الله لومة لائم ، فلا بدع أن قلنا إنه كان من أعلام مجددي القرن الثالث عشر الهجري فى التدريس والافتاء ونشر الثقافة الاسلامية ، ولم يزل فى هذه الخدمات العظيمة حتى ناهز المائة وأقعده الدهر الذي لا يرحم أحداً ، وفى آخر أيام حياته أصيب بوعكة ألمت به أياماً قليلة ، وفى ليلة الاثنين ثالث جمادى الأولى سنة ١٣٠٨ هـ = ١٨٩٠ م أســـلم روحه الطاهرة لبارئها ورجعت الى ربها راضية مرضية ، فاهتزت بغداد لموته ، وحضر تشييع جنازته الوالي والمشير ، واحتشد آلاف من الأشراف والأعيان ورجال العلم والفضل والأدب ، ودفن فى مدرسته المشهورة بالمدرسة السليمانية .

---

(١) ان الشاعر جميل صدقي الزهاوي ضمن أشعار والده هذه فى قصيدة طويلة ، يقول بعد البيت الرابع :

كل شيء مع الجديدين يفنى ... ثم يبقى جلال ربنا فتعالى (كذا)

مات المفتي وهو تقي زاهد عابد ورع غيور على العلم والعلماء ، ورثاه كثير من الأدباء والفضلاء ؛ منهم الوزير (سري باشا) في مجموعة تسمى (نطقلر مجموعه سي) يعني مجموعة الخطب ، ومنهم السيد أحمد الراوي الواعظ المشهور بابي الحلق الذهب ، ومنهم السيد عبد الوهاب أفندي النائب ، ومنهم العالم السيد عرفان أفندي المدرس بمدينة السليمانية ؟

محمد الخال